تمهيد

حياة بني هاشم في الجاهلية وصدر الإسلام

أولاً– قريش وبنو هاشم قبل الإسلام

ثانيًا– الحياة الاجتماعية والدينية في مكة قبل الإسلام

ثالثًا– بنو هاشم بعد الإسلام

تمهيد

حياة بني هاشم في الجاهلية وصدر الإسلام

كان لهذا البطن من قريش دَورٌ تاريخي، لعله أهَمُّ الأدوار التاريخية في مكة، منذ أجداد هاشم القدماء، الذين لا يُعرَفُ عنهم الكثير، إلاَّ بدءًا من جَدِّه قُصَيِّ بن كِلاب، ثم توالت الأهمية التي ورَّثها لهم قُصَيٌّ. ولذلك كان يجب علينا الرجوع إلى ما قبل هاشم، ليتبيَّن لنا تسلسل تلك الأهمية، ثم ما كان عليه هاشمٌ وبنوه، من خلال الحديث عن قريش وبني هاشم في الجاهلية، والحياة الاجتماعية والدينية فيها، ثم الحديث عن بني هاشم في الإسلام.

أولاً– قريش وبنو هاشم قبل الإسلام:

كانتْ مَكَّةُ تكتسبُ أهميتها عند القبائل العربية، من وجود بيت الله الحرام بها، فإليه يحج الناس. وكانت خُزَاعةُ قد سيطرت على مكة وعلى البيت الحرام ونشرتْ فيها الأوثان، وأبعَدتْ جُرْهُمًا الذين هم سكانها الأصليون، لمدَّة خمسمائة عام([1]). فجاء قصيُّ ابن كلاب وأبعَدَ خُزاعةَ. ولم يكن للقرشيين دورٌ تاريخي يُذكر في فترة سيطرة خزاعة، فلا نجد إلا إشارات تاريخية لبعض الأشخاص من حكمائهم أو رؤسائهم، مثل لؤيّ بن غالب، الذي كان قد حفر بئرًا تُدْعَى (اليسيرة) خارج الحرم([2])، وكعب بن لؤي الذي "كان بين موته ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وستون سنة"([3])،

([1]) انظر في إبعاد خزاعة لجرهم: تاريخ العرب قبل الإسلام، للأصمعي ص94– 99.

([2]) فتوح البلدان للبلاذري ق1– ص56.

([3]) رواه أبو نعيم وغيره. وانظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي جـ1– ص330. وكان كعب بن لؤي أوَّل مَنْ سَمَّى يوم (الْجُمعة) بهذا الاسم، الذي كان اسمه العَروبة، وذلك لاجتماع الناس إليه في كل يوم جمعة، ثم غَيَّر أسماء بقية الأيام، وكانوا يُسمون الأحد (أول)، والاثنين (أهون) والثلاثاء (جبارًا) والأربعاء (دبارًا) والخميس (مونسًا) والجمعة ما سبق، والسبت (شَيارًا). وانظر: بلوغ الأرب للألوسي جـ1– ص373.

وكانوا يُؤرِّخُون بموته، حتى كان عام الفيل فأرَّخُوا به([1]). ومُرَّة بن كعب، الذي حفر بئرًا تُدْعَى الرَّوِي([2]). وكلاب بن مُرَّة([3])، الذي حفر آبار: خُمَّ ورُمَّ والْجَفْر، بظاهر مَكَّة([4])، وغيرهم.

ويبدأ التاريخُ القرشيُّ الحقيقي، منذ أن أصبح لِقُرَيش دورٌ في مكة، أيْ بعد أن أصاب قُصَيُّ بنُ كِلابٍ– واسمه زيد بن حكيم– مُلْكًا، وأمسك بمقاليد الأمور في مكة وأحكم سيطرته عليها، وصار مفتاحُ الكعبة بيده، حيث أخذه من خُزَاعة، وأجْلاها عن مكة، وجمع قبائل قريش وأنزلها مكة، وبنى بها دار الندوة، وكانت قريشٌ قبل ذلك ينزل بعضُهم الأبطح، وهُم قريش الأباطح، وبعضُهم ينزل بظاهر مكة، وهُم قريش الظواهر، فجَمَّعَهُم قُصَيٌّ تحت قيادته. وفيه يقول الشاعر([5]):

أبُـوكُمْ قُصَـيٌّ كـانَ يُـدْعَى مُجَمِّعـًا بِـهِ جَـمَّعَ اللـهُ القَبـَائِلَ مِـنْ فِـهْرِ
وأنْـتُمْ بَنُـو زَيْـدٍ وزَيْـدٌ أبُـوكُم بِـهِ زِيـدَتِ البَطْحَـاءُ فَخْـرًا علـى فَخْـرِ

فلَمَّا اجتمعوا أنزلَهُم بطحاء مكَّة في الشِّعاب ورُءُوس الجبال، وقَسَّمها رِباعًا بين قومه، وأنزَل كُلَّ قومٍ من قريش منازلَهُم من مكة التي أصبحوا عليها([6]).

([1]) السيرة النبوية لدحلان جـ1– ص10 و11.

([2]) فتوح البلدان ق1– ص56.

([3]) اسمه حكيم بن مُرَّة، أمَّا (كِلاب) فهو لقب غلب عليه، وسبب ذلك أنه كان مُحِبًّا للصيد مولعًا به، وكان أكثر صيده بالكلاب، وجمع منها شيئًا كثيرًا، فكان إذا مَرَّ بقومٍ بكلابه قالوا: هذه كلابُ ابنِ مُرَّة، فغلب ذلك عليه. وانظر: نهاية الأرب للنويري جـ16– ص19، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب للداودي (ط. بيروت) ص24.. وفيه يقول الشاعر:

حـكيمُ بـنُ مُـرَّة سـادَ الـوَرَى بِبَـذْلِ النَّـوَالِ وَكَـفِّ الأَذَى

وهو أول مَنْ سَمَّى الأسماء العربية المعروفة للشهور القمرية. وانظر: بلوغ الأرب للألوسي جـ3– ص79.

([4]) فتوح البلدان للبلاذري ق1– ص56.

([5]) البدء والتاريخ للمقدسي جـ4– ص109. وقُصَيّ اسمه (زَيْد)، وقُصَيٌّ لقب غلب عليه، لأنه تَرَبَّى في طفولته بعيدًا عن موطن أهله، مع أمه التي تزوجت من بني عذرة.

([6]) حكى البعضُ أن هذا هو السبب في تسمية قريش، أي أن التقريش– أي التجميع– هو السبب، وهذا خطأ صريح، فهو مبني على الظن، وقد رَوَّج له البعض، عن قصد أو عن غير قصد، وخطورته تكمن في إخراج أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب– رضي الله عنهما– من انتسابهما لقريش، فتبطل خلافتهما، فإن أبا بكر من بني تيم بن مُرَّة، وعُمر من بني عَدِيّ بن كعب. وانظر: سبل الهدى والرشاد للصالحي جـ1– ص330. والصواب أنَّ النضر بن كنانة كان يُسَمَّى قريشًا. وانظر: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين النهروالي ص42. وعلى هذا يكونان من قريش، من ولد إسماعيل عليه السلام. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نزل القرآنُ بلسان الكعبين"، أي: كعب قريش وكعب خزاعة. وكعب قريش هو: كعب بن لؤي. وقد حكى الفخر الرازي الاتفاق على أنَّ قريشًا وَلَدُ النَّضْر بن كنانة. وانظر: التفسير الكبير جـ32– ص100. وقال الوزير المغربي: "من ليس من ولد النَّضْر فليس من قريش" أدب الخواص ص91. وانظر تفاصيل الخلاف حول تسمية قريش، في: خزانة الأدب للبغدادي جـ1– ص203.

لقد رأى قُصَيٌّ أن يجعل لقومه مَهَابة، فقال لهم: "إنْ سَكَنْتُمُ الحرَم حول البيت هابَتْكُم العَرَبُ ولم تستحلّ قتالكم، ولا يستطيع أحدٌ إخراجكم"، فقالوا له: "أنتَ سيِّدُنا ورأيُنا تبَعٌ لرأيك"، فجَمَّعَهُم حول البيت، وابتدأ هو فبَنَى دار النَّدوة، وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات، فلا تُنْكَحُ امرأةٌ ولا يتزوَّج رجُلٌ من قريش إلاَّ فيها([1]). فقصيٌّ "أولُ من أصابَ من قريش مُلكًا أطاعه به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت، وتيمَّنتْ قريشٌ برأيه فصرفوا مشورتهم إليه"([2]).

كانت ولاية البيت قبل قصيٍّ، لِحُلَيْل بن حُبْشِيَّة الخزاعي، وكان قُصَيٌّ قد تَزَوَّجَ ابنته حُبَّى بنت حُلَيْل، وولدتْ له أولاده: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العُزَّى، وعَبْدًا([3]). فقال حُليل: إنما وَلَدُ قُصَيٍّ وَلَدِي، هُم بَنُو ابنتي. فأوصَى بولاية البيت والقيام بأمر مَكَّة إلى قُصَيّ، وقال: أنتَ أحَقُّ به([4]).

ويُقال إنه لَمَّا هلك حُلَيْلُ بنُ حُبْشِيَّة وانتشَرَ ولدُ قُصَيٍّ وكثر مالُه وعَظُمَ شرفُه، رأى أنه أوْلَى بالبيت وأمْر مَكَّة من خُزَاعة وبني بكر، وأنَّ قُرَيْشًا فَرْعَةُ إسماعيل بن إبراهيم وصريحُ ولده، فكلَّم رجالاً من قريش وبني كنانة، ودَعَاهُم إلى إخراج خُزَاعة وبني بكر من مكة، وقال: نحن أولى بهذا منهم، فأجابوه إلى ذلك، وتابَعُوه([5]).

وقيل إنَّ حُلَيْلَ بْنَ حُبشيَّة كان قد جَعَلَ ولاية البيت إلى ابنته، فلما حضرته الوفاةُ قيل له: إنَّها لا تقوم بفَتْح الباب وغَلْقِه، فجعل ولاية البيت إليها، وجعل فتْح الباب وغلقه إلى رَجُلٍ من خُزَاعة يُعرفُ بأبي غُبْشَان، فباعَهُ أبو غُبْشَان إلى قُصَيٍّ ببَعِيرٍ وزِقّ خَمر، فأرْسَلَت العرَبُ مثلاً، فقالت: "أخْسَرُ مِنْ صَفْقَةِ أبي غُبْشَان". وفي بيعته لولاية البيت من قومه من خُزَاعة إلى قُصَيّ بن كلاب يقول الشاعر:

([1]) فتوح البلدان للبلاذري ق1- ص60. الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهروالي ص45.

([2]) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص277.

([3]) أنجب قصي بن كلاب أربعة رجال وامرأتين: عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العُزى، وعبدًا، وتَخْمُر، وبَرَّة. وانظر: الاكتفاء للكلاعي جـ1- ص32 و33.

([4]) الطبقات الكبير لابن سعد جـ1- ص49.

([5]) السابق جـ1- ص50.

أبُـو غُبْشَـانَ أظْلَـمُ مِـنْ قُصَـيٍّ وأظْـلَمُ مِـنْ بَـنِي فِهْـرٍ خُزَاعَـهْ
فـلا تَلْحَـوْا قُصَيـًّا فـي شَـرَاهُ ولُومُـوا شَـيْخَكُمْ إذْ كَـانَ بَاعَـهْ

وقال في ذلك آخَر:

إذَا افْتَخَـرَتْ خُزَاعَـةُ فـي قَـدِيمٍ وَجَـدْنَا فَخْـرَهَا شُـرْبَ الْخُـمُورِ
وبَاعَـتْ كَعْبَـةَ الرَّحْـمنِ جَهْـرًا بِـزِقٍّ، بِـئْسَ مُفْتَـخَرُ الفَخُـورِ([1])

كان قُصَيٌّ قد أصبح حاكمًا على مكة، واتخذ خطوات توطين القرشيين في مكة بجِدّ، فحفَر آبارًا بمكة، يستقي منها المقيم والحاج، وكان الماءُ بمكة عزيزًا ويشرب الناس من آبار خارجة من الحرم، فمن تلك الآبار التي حفَرَها (العَجُول)، بالْحَزْوَرَة، وكانت العرب إذا قدمت مكة يردونها فيستقون منها ويتراجَزُون عليها، وقال قائلٌ فيها([2]):

أرْوِي مِـن العَجُـولِ ثُمَّـتْ أنْطَـلِقْ
إنَّ قُصَيـًّا قَـدْ وَفَـى وَقَـدْ صَـدَقْ
بالشِّـبْعِ لِلْـحَيِّ وَرِيِّ الْمُغْتَبِـقْ

كما حَفَرَ بئرًا عند الرَّدم الأعلى، ثم دثرَتْ فنثلها جبيرُ بن مُطْعِم وأحياها([3]).

لقد كان قُصَيٌّ دائم الاهتمام بأسباب العُمران، للمقيم والحاج، فإنه أول مَنْ أوقَد نارًا بالمزدلفة، وهي التي توقد حتى يراها مَنْ دفع من عَرَفة([4]).

وقد انتقل الأمرُ بعد قُصيٍّ لأبنائه، لكنه خَلص لعبد مَنَافٍ وأبنائه، وهو ما لَخَّصه ابنُ الزِّبَعْرَى بقوله([5]):

([1]) مروج الذهب للمسعودي جـ2- ص58.

([2]) أخبار مكة للأزرقي جـ1- ص112 و113. والْحَزْوَرة اسمُ سوق كانت بمكة.

([3]) السابق جـ1- ص113.

([4]) بلوغ الأرب للألوسي جـ2- ص162.

([5]) البيت في: شعر عبد الله بن الزعرى، د. الجبوري- برواية: فالمح خالصُها- (قسم المنسوب إلى ابن الزعرى وإلى غيره) ص89. ومُحُّ البيض صُفرته، وانظر: تهذيب اللغة جـ4- ص21. وقال ابن منظور في لسان العرب (مح): "مَنْ رَوَى (خالصة) بالتاء فهو في الأصل مصدر كالعافية، ومَنْ رَوَى (خَالصُه) بالهاء فلا إشكال فيه.

كانـتْ قُـرَيْشٌ بَيْضَـةً فتَفَلَّقَـتْ فَـالْمُخُّ خَالِصَـةً لِعَبْـدِ مَنَـافِ

ويُرْوَى أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم، سمع رجُلاً يُنشِد:

كانَـتْ قُـرَيْشٌ بَيْضَـةً فَتَفَلَّقَـتْ فَـالْمُخُّ خَـالِصُها لِعَبْـدِ الـدَّارِ

فَغَضِبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: "أهكذا قال الشاعر؟!"، قال: لا يا رسول الله، إنما قال:

يأيُّهـــا الرَّجُـــلُ الْمُحَـــوِّلُ رَحْـــلَهُ هَـلاَّ نَـزَلْتَ بِـآلِ عَبْـدِ مَنَـافِ

الضَّارِبِـــينَ الْكَـبْشَ يَـبْرُقُ بَيْضُـــهُ والقَـــائِلِينَ هَلُـــمَّ لِلأضْيَـــافِ

الْخَالِطِـــينَ فَقِـــيرَهُمْ بِغَنِيِّـــهِمْ حتـى يَعُـودَ فَقِـيرُهُمْ كالْـكافي

عَـمْرُو العُـلا هَشَـمَ الثَّرِيـدَ لِقَـوْمِهِ وَرِجَـالُ مَكَّـةَ مُسْـنِتُونَ عِجَـافُ

كانـــتْ قُـــرَيْشٌ بيضَـــةً فتَفَـــلَّقَتْ فالْمُـــخُّ خالِصُـــها لِعَبْـدِ مَنَـافِ

ففَرِحَ صلَّى الله عليه وسلم حتى بَرقَتْ أساريرُ وَجْهِه، وقال: "هكذا قال"([1]).

كان عبدُ مَنَافٍ يُقال له: قَمَر البطْحاء؛ لحسنه وجماله، وكان يلُوحُ عليه نورُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. وكان اسْمُه الْمُغِيرَة، فدفعَتْهُ أمُّه إلى مَنَاف– وكان من أعظم أصنام مكة– تعظيمًا له، لأنها من خُزَاعة([2])، فغلَبَ عليه: عبد مناف، لكنَّه لم يَصِرْ وثَنِيًّا، بل كان يبغض الأصنام، لأنه كان على الحنيفيَّة، مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام. وقد رُوِيَ عن الزُّبير بن العوام، رضي الله عنه، أنه وجد حَجَرًا منقوشًا عليه: (أنا الْمُغِيرَةُ بنُ قُصَيٍّ، أُوصِي قُرَيْشًا بتقوَى الله وصِلَةِ الرَّحِم). وقد استحكمت رئاسةُ عبدِ مَنَافٍ بعد أبيه، لجودة سياسته([3]).

فإنه لَمَّا هَلَكَ قُصَيُّ بن كلاب، قام عبدُ مناف بنُ قُصَيٍّ على أمر قُصَيٍّ بعده، وأمر قريش إليه، واخْتَطَّ بمكة رِبَاعًا بعد الذي كان قُصَيٌّ قطعَ لقومه([4]).

([1]) أنساب الأشراف للبلاذري (جمل من) جـ1– ص70. نضرة الإغريض للمظفر العلوي ص303 و304. ويلاحظ الإقواء في البيت قبل الأخير، ويروى: (قومٍ بمكة مُسنتين عجافِ).

([2]) أمه وأم إخوته جميعًا: حُبَّى بنت حُليل بن حُبشية بن سَلُول بن كعب الخزاعي. وانظر: الاكتفاء للكلاعي جـ1– ص32 و33.

([3]) الاكتفاء للكلاعي جـ1– ص33. بلوغ الأرب للألوسي جـ2– ص285. ويُقال في تسميته عبد مناف، ما ذكره الزمخشري في "أساس البلاغة" (نوف): وجبلٌ عالي الْمَناف أي الْمُرْتقَى. ومنه: عبد مناف. جـ2– ص482.

([4]) الطبقات الكبير لابن سعد جـ1– ص55.

كان لعبد مناف أبناءٌ وبناتٌ كثيرون، ستة أبناء وست بنات، فأبناؤه: المطَّلبُ، وهو أكبرهم، وهو الذي عَقَدَ الحلف لقريش من النجاشيّ في مَتْجَرها إلى أرْضه، وهاشمٌ- واسْمُه عمرو- وهو الذي عقد الحلف لقريش من هرقل لأن تختلف إلى الشام آمنة، وعبدُ شمس بن عبد مناف، ونوفلُ بنُ عبد مناف، الذي عقد الحلف لقريش من كسرى إلى العراق، وأبو عمرو بن عبد مناف، وأبو عُبيد، مات صغيرًا. وأمَّا بناتُه فهُنَّ: تُماضر، وحَيَّة، وقِلابة، وبَرَّة، وهَالة، ورَيْطة([1]).

وكان بَنُو عبد مناف يُسَمَّوْنَ الْمُجَبِّرِينَ، لأنهم جَبَرَ الله تعالى بهم قُرَيْشًا، فقيل فيهم الْمَثَل: "أقْرَشُ من الْمُجَبِّرين"، لأنهم كانوا أهل جَمع وتجارة. وقيل فيهم الْمَثَل: "أوْفَدُ من الْمُجَبِّرِين"، لأنهم كانوا أكثر العرب وفادةً على الملوك([2]).

كان هاشمُ بنُ عبد مناف أوَّل مَنْ سَنَّ الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، إلى النجاشي فيُكرمه ويَحْبُوه. ورحلة في الصيف إلى الشام، إلى غَزَّة، وربُما بلَغَ أنقرَة، فيدخُل على قيصر فيُكرمه ويحبُوه، فأصابَتْ قريشًا سنواتٌ ذَهَبْنَ بالأموال، فخرَجَ هاشمٌ إلى الشام، فأمَرَ بِخُبْزٍ كثير فَخُبِزَ له، فحمله في الغرائر على الإبل، حتى وَافَى مكة، فهشَم ذلك الخبز- يعني كسره وثَرَدَه- ونحرَ تلك الإبل، ثم أمَرَ الطُّهاة فطَبَخُوا، ثم كفأ القُدُور على الْجِفَان، فأشْبَعَ أهلَ مكة، فكان ذلك أوَّلَ الحيا بعد السنة التي أصابتهم، فسُمِّيَ بذلك هاشِمًا([3]). وقال عبد الله بن الزِّبعرَى في ذلك:

عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثَّريدَ لِقَوْمِهِ ورِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ([4])

ويُقال في الْمَثَل: "ما أحَدٌ كهاشم وإنْ هَشَم، ولا كحاتمٍ وإنْ حَتَم"([1]). ونلاحظ أن هذا المثَل اختصارٌ للرَّجَز الذي قيل فيه، وهو([2]):

([1]) السابق جـ1- ص56.

([2]) مجمع الأمثال للميداني جـ2- ص127 و378.

([3]) السابق جـ1- ص57.

([4]) شعر عبد الله بن الزبعرى، د. الجبوري (قسم ما ينسب إلى عبد الله بن الزبعرى وإلى غيره من الشعراء) القطعة رقم (30) ص89.

مـــا أحَـــدٌ كهاشِـــمٍ وإنْ هَشَـــمْ
لا، لا، ولا كحاتـــــمٍ وإنْ حَـــــتَمْ

فقد كانت قريشٌ- قبل صنيع هاشم- إذا أصابَ واحدًا منهم مخمصةٌ خَرَجَ هو وعيالُه إلى موضع وضَرَبُوا على أنفُسِهم خِبَاءً حتى يموتوا، إلى أن جاء هاشمُ بنُ عبد مَنَاف، وكان سيِّد قومه، وكان لهاشم ابنٌ يُقال له (أسَد) وكان له تِرْبٌ من بني مخزوم يُحبُّه ويلعب معه، فشكا إليه الضَّرر والمجاعة، فدخَل أسدٌ على أمِّه يبكي، فأرسلَتْ إلى أولئك بدقيق وشَحْمٍ، فعاشوا فيه أيَّامًا، ثم أتَى تِرْبُ أسَدٍ إليه مَرَّةً أخرى، وشكا إليه من الجوع، فقام هاشمٌ خطيبًا في قريش، فقال: إنكم أجْدَبْتُم جَدْبًا تَقِلُّون فيه وتذلُّون، وأنتم أهلُ حَرَم الله وأشرافُ وَلَدِ آدم، والناسُ لكم تَبَعٌ. قالوا: نحن تبَعٌ لك فليس عليك مِنَّا خلاف، فجمَعَ كُلَّ بني أبٍ على الرِّحلتَيْن، في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغَنِيُّ قسَمَهُ بينه وبين الفقير حتى كان فقيرُهُم كغَنِيِّهِم، فجاء الإسلام وهُم على ذلك، فلم يكُنْ في العَرَب بَنُو أبٍ أكثرَ مالاً ولا أعَزَّ من قريش([3]).

والنظرة إلى ما قبل عمل هاشم بن عبد مناف للإيلاف، تجعلُنا نتصوَّر حجم هذه الخطوة، فالقوافل "كانت تُبْعَثُ مِنْ قِبَلِ الأفراد، وكان في ذلك مُخاطَرَة كبيرة، فالتجَّار مُعَرَّضُون لخسارة كل شيء في حالة هجوم قُطَّاع الطُّرُق أو القبائل المعادية، والتاجر الذي استثمر كل رأس ماله ربما خَسِرَ كل شيء، فكان الإيلافُ هو الذي جعَلَ الرحلات أمينة. وكان رأيُ هاشم في ضَمّ الفقير لمشروع القوافل رأيًا جريئًا، إنه أراد أن يُعْطي الفقير بعضَ الحصص في الأرباح مكافأةً لعمله، أو من الراجح مقابل توظيف

([1]) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص242.

([2]) لطائف المعارف للثعالبي ص11.

([3]) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج32- ص100.

المبالغ الصغيرة للأقارب الفقراء... وهذه الفكرة- فكرة مخالطة الفقير أو الأدنى مرتبة مع الغَنِيّ- كانت المثَل الأعلى في المجتمع الجاهلي"([1]).

وهو ما عناهُ الشاعر بقوله: (والخالطين غنيَّهُم بفقيرهم)، حيث يرى الشريف المرتضى أنه من أحسن الكلام وأخصره، وقال: "وإنما أراد أنهم يفضلون على الفقير حتى يعود غَنِيًّا ذَا ثَرْوَة"([2]).

وكان حُكَّامُ مكة بعد هاشم من أبنائه: عبد المطلب، وبعده الزبير بن عبد المطلب، وبعده أبو طالب بن عبد المطلب([3]).

ثانيًا- الحياة الاجتماعية والدينية في مكة قبل الإسلام:

أ- الحياة الاجتماعية:

قام قُصَيُّ بنُ كلاب بأكبر حركة إصلاح اجتماعي في مكة، حين جَمَع القرشيين جميعًا في مكة- كما أسلفنا- فصاروا مجتمعًا واحدًا، وقسَّمها رباعًا بينهم وأسكنهم فيها، بعد أن كانوا متفرِّقين. وهذا المجتمع كان يستلزم مقومات قيامه الأساسية، من مياه كافية للجميع وغذاء ضروري، بالإضافة إلى سقاية الحجيج وإطعامهم. وكان لابد من قيام حركة اقتصادية يقوم عليها هذا المجتمع الموحَّد، وهو ما كان يسعى إليه قصي، ثم أبناؤه من بعده. كما كانت دار الندوة يُدار منها أمر قريش كلها، بما في ذلك من نواحٍ اجتماعية، تتعلق بالزواج. وأما أعضاء دار الندوة فكانوا جميعًا من ولد قصي، ومعهم بعضٌ من غيرهم، شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عُمره، أو كان من ذوي القدرات الخاصة. ويمكن وصفها بما وصفها به أحد الأساتذة بأنها كانت دار الندوة بمنزلة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها الملأ من القوم، الذين

([1]) مكة وتميم: مظاهر من علاقاتهم- للبروفيسور كستر، ص11.

([2]) أمالي المرتضى ق2- ص262.

([3]) المنمق لابن حبيب ص368.

كانوا يُشْبِهُون- إلى حَدٍّ ما- مجلس الشيوخ الأثيني، ويتكونون من رؤساء العَشائر وأصحاب الرَّأي والحكمة فيهم للنظر فيما يعرض القوم من صعاب([1]).

كانت قريشٌ قبل جمع قُصَيٍّ إيَّاها، وقبل دُخُول مكة، تشرب من حِيَاضٍ ومصانع على رءوس الجبال، ومن البئر التي حفَرَها لؤيُّ بْنُ غالب، واسمها "اليسيرة"، ومن البئر التي حفرها مُرَّة بن كعب، التي تلي عَرَفة، واسمها "الرَّوِيّ"، ومن الآبار التي حفرها كلابُ بن مُرَّة، وهي: خُمَّ ورُمَّ والْجَفْر بظاهر مكة. وبعد قُصَيٍّ كانوا يشربون من البئر التي حَفَرَها قُصَيّ، واسمها "العَجُول"([2]).

وكان هاشمُ بنُ عبد مناف قد حَفَرَ بَذَّر، عند الْخَنْدَمَة، على فَم شِعْبِ أبي طالب، كما حَفَرَ سَجْلَة، التي وَهَبَها أسَدُ بْنُ هاشم لِعَدِيِّ بن نوفل بن عبد مناف. ولَمَّا جاء عبدُ المطلب حَفَرَ زَمزم، وكثُرَ الماءُ بمكة([3]).

لم تكن هذه الآبارُ هي كل الآبار التي حفرتها قريش، فقد حَفَرَ عبدُ شمس بن عبد مناف "الطَّوِيّ"، وهي بأعلى مكة، وحفَرَ لنفسه- أيضًا- "الْجَفْر". وحفر ميمونُ بن الحضرميّ، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف بئره، وهي آخِرُ بئرٍ حُفِرَتْ في الجاهلية بمكة.

وحفر عبدُ شمسٍ- أيضًا- بئرين وسَمَّاهُما "خُمَّ" و"رُمَّ" على ما سَمَّى كلابُ بنُ مُرَّة بئريه. وحفرَتْ بنو أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَي "شُفَيَّة". وحفَرَ بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ "أمَّ أحْرَاد". وحفَرَ بنو جُمَح "السَّنبلة"، بأسفل مكة، وهي لخلف بن وَهب الْجُمَحي. وحفَرَ بنو سهم "الغَمْرَ"، وهي بئرُ العاصي بن وائل. وحفَرَت بنو مَخْزُوم "السُّقْيا". وحفرَت بنو تيم "الثُّرَيَّا"، وهي بئر عبد الله بن جُدعان. وحفَرَتْ بنو عامر بن لُؤَيٍّ

([1]) معالم تاريخ العرب قبل الإسلام د. أحمد أمين سليم ص124.

([2]) فتوح البلدان للبلاذري ق1- ص56. والمصانع أو الأصناع: جمع مَصنَعَة الماء، وتُطْلَق على خشبة يُحبَسُ بها ماء المطر وتُمسكه حِينًا. أو هي حُفَرٌ يحتفِرُها الناس لإمساك ماء المطر. وانظر: تاج العروس- صنع- جـ21- ص371 و372.

([3]) السابق، نفس الصفحة.

"النَّقْع"([1]). وهناك بئرٌ تُسَمَّى "الصلاصل" بفم شِعْب البيعة عند العَقَبة، عقبة منى، والتي ذكرها أبو طالب في لاميَّته الشهيرة، بقوله([2]):

ونُسْـلِمَهُ حتـى نُصَـرَّعَ حَـوْلَهُ ونـذْهَلَ عـن أبنائِنـا والحلائـلِ
ويَـنْهَضَ قَـوْمٌ فـي الْحَدِيـدِ إليْـكُمُ نُهُوضَ الرَّوَايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصِلِ

وكان حَفْرُ الآبار من المناسبات السعيدة التي يتغَنَّون فيها، ويقول فيها القرشيون الأشعار والأراجيز، بل كان حَفْرُها مدعاة فَخْرٍ لحافريها أو أبنائهم([3]).

وتُعَدُّ شبه الجزيرة العربية من أشدّ البلاد جفافًا وحَرًّا "ويرجع ذلك إلى وقوعها في منطقة قريبة من خط الاستواء، كما أن معظمها يقع في الإقليم المداريِّ الحارِّ، كما يرجع إلى بُعدها عن المحيطات الواسعة التي تُخَفِّف من درجة الحرارة، كما أن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق والغرب منها– أي الخليج العربي والبحر الأحمر– أضْيَق من أن تكفي لكسر حِدَّة هذا الجفاف، بالإضافة إلى أن رياح السَّموم التي تنتاب شبه الجزيرة العربية في مواسم معينة تسلب الرطوبة من الهواء قبل أن يدخل البلاد. ويسقط المطر في بعض الأحايين على بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية فيبعث الحياة في الأرض، وينهمر المطر أحيانًا بِشِدَّة فيُكوِّن سُيولاً عارمة تكتسح كل ما تجده أمامها، وتسيل الأودية فتتحوَّل إلى أنهار سريعة الجريان"([4]).

وكان القرشيون يتنزَّهون عند أماكن السيول، ويُرْوَى أنه كان يُوجَدُ موضعٌ يُقال له "بَطْحَاءُ قريش" بالْمُفَجَّر، كانت قريشٌ في الجاهلية وأوَّل الإسلام يتنزَّهون به، ويخرجون إليه بالغَدَاة والعَشِيِّ، وذلك الموضع بذَنَبِ المفَجَّر في مؤخِّره، يصبُّ فيه ما جاء من سَيْل الفدفدة([5]).

([1]) السابق، ص56 و57.

([2]) ديوان أبي طالب (بتحقيق: د. ألتونجي) ص66.

([3]) وقد ورد بعض هذه الأراجيز التي قالها الهاشميون في قسم الجمع من هذا البحث، وانظر: شعر هاشم، وشعر صفية.

([4]) معالم تاريخ العرب ص13– 15.

([5]) أخبار مكة للأزرقي جـ2– ص277.

كما كانت الأسواقُ منتديات للقرشيين. وكانت هذه الأسواق بعُكاظ ومجَنَّة وذي المجاز قائمة في الإسلام... ومجنة سوق بأسفل مكة، وهي سوقٌ لكنانة وأرضها من أرض كنانة، وهي التي قال فيها بلالُ بن رباح عقب الهجرة وهو يحنُّ إلى مكة[1]:

ألا ليتَ شِعْري هل أبيتَنَّ ليلةً بِفَخٍّ وحَوْلي إذْخِرٌ وجَلِيلُ

وهلْ أرِدَنْ يومًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وهَلْ يبْدُوَنْ لي شَامةٌ وطَفِيلُ

ب- الحياة الدينية:

كان أهلُ مكة القدماء (جرهم) على الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، إلى أن جاءت خُزَاعة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد قام عَمْرُو بْنُ لُحَيّ بوضع الأوثان وتغيير دين الحنيفية، وقد روَى الطبراني- بإسناده- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوائِبَ وبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وغَيَّرَ دِينَ إبراهيم: عَمْرُو بْنُ لُحَيِّ بن قمعة بن خِنْدِف بن خُزَاعة"[2].

فالسوائب جمع سائبة، وهي الدابة كان الجاهليون يُسيِّبُونها لآلهتهم فلا تُركَب ولا يُحمل عليها. والبَحِيرة: هي التي يُمنَع دَرُّها، فلا تُحْلَب. وقد حَرَّمَ الله هذه العادة بقوله: ﴿ما جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ﴾ [سورة المائدة: 103].

لقد انتشرت الوثنية بشكل هَيْمَنَ على الحياة الدينية في مَكَّة، حتى وصل تعظيمُهم للأوثان أن وضعوها في الكعبة، فصارت الحياة الدينية مختلطة بالأوثان. وقد كانت القبائلُ العربية تؤدِّي مناسك الحجّ، وكان لكل قبيلة تلبيتُها، وسيتضح من إيراد بعض نصوص التلبية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُرَدِّدُ بعضها مع أصحابه، في

([1]) السابق جـ1- ص190 و191.

([2]) كتاب الأوائل للطبراني، ص76.

أغاني العمل، في بناء المسجد وفي حفر الخندق وغير ذلك. فكان من تلبية جُرْهُم في الجاهلية– وهم أوَّلُ سُكان البيت الحرام–([1]):

واللهِ لـولا أنـتَ مـا حَجَجْنـا
مَكَّـةَ والبَيْـتَ ولا عَجَجْنَـا
ولا تصـــدَّقنا ولا ثَجَجْنـــا
ولا تَمَطَّيْنـــا ولا رَجَعْنـــا
... ...

وكان من تلبية الأزد([2]):

يـا رَبِّ لـولا أنـتَ مـا سَـعَيْنا
بـين الصـفا والْمَـرْوَتيْنِ فَيْنـَا
ولا تصَـــدَّقنا ولا صَـــلَّيْنا
ولا حلَلْنـا مَـعْ قُـرَيْشٍ أيْنـا
البيـتُ بيـتُ الله مـا حيَيْنـا
واللهِ لـولا الله مـا اهتـدَيْنا
نَحُـجُّ هـذا البيـتَ مـا بَقَيْنـَا

وكانت تلبية الأشعريين([3]):

اللهـم هـذا واحِـدٌ إنْ تَـمَّا
أتَـمَّهُ الله وقـد أتَـمَّا
إنْ تَغْفِـرِ اللهـم تغفـر جَـمَّا
وأيُّ عَبْـدٍ لـك لا ألَـمَّا

وكان هناك المتشدِّدُون في الدين في الجاهلية، يذكر الفخر الرازي حالهم بقوله: "اعلم أن أهل الجاهلية كانوا قد غَيَّروا مناسك الحجِّ عن سُنة إبراهيم عليه السلام،

([1]) الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب، ص121.
([2])الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص122.
([3]) السابق ص125.

وذلك أنَّ قريشًا وقومًا آخَرين سَمَّوا أنفسهم بالْحُمْس، وهُم أهلُ الشِّدَّة في دينهم. والحماسة الشدة، يقال: رجلٌ أحْمَس وقومٌ حُمْسٌ"([1]).

وقد حَرَّم بعضُ الجاهليين السُّكْرَ والْخَمْرَ والأزلام في الجاهلية، اشتهر منهم زيدُ ابنُ عمرو بن نفيل، الذي كان قد تألَّهَ في الجاهلية وترك تعظيم الأوثان، وقال شعرًا يُجاهر فيه باعتزال الأوثان، ومنه قوله([2]):

تركتُ اللاتَ والعُزَّى جميعًا كذلك يفعَلُ الْجَلدُ الصَّبُورُ
فلا العُزَّى أدِينُ ولا ٱبنتيْهَا ولا صَنَمَيْ بَنَي غَنْمٍ أزُورُ
ولا هُبَلاً أزورُ وكانَ رَبًّا لنا في الدَّهرِ إذْ حِلْمِي صَغيرُ

وكان من المتحنِّفين في الجاهلية عبدُ المطلب بنُ هاشم([3]). وكان ممن حرَّم الخمر في الجاهلية([4]). وقد رفضَ في آخر عُمره عادة تعظيم الأوثان، فكان على التوحيد، وتُؤثَر عنه سُنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وألاَّ يطوف بالبيت عريان([5]). بل إنَّ أشعاره توضِّح عقيدته الحنيفية([6]).

لقد كانت الحنيفية باقية في قريش، ويُروى أنهم "كان يُقال لهم: أهل الله وجيران الله، لنزولهم الحرم وجوارهم البيت، وكان فيهم بقايا من الحنيفية يتوارثونها عن إسماعيل صلى الله عليه وسلم، من حج البيت الحرام وزيارته والختان والغُسْل والطلاق والعتق وتحريم المحارم بالقرابة والرَّضاع والصِّهر"([7]).

([1]) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ5- ص151.
([2]) كتاب الأصنام للكلبي ص21 و22.
([3]) المنمق لابن حبيب ص422.
([4]) قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور، للرقيق القيرواني ص841.
([5]) بلوغ الأرب للآلوسي جـ1- ص324.
([6]) الشعراء الحنفاء، د. أحمد جمال العمري ص102.
([7]) كتاب العرب لابن قتيبة ص290 و291.

لقد نُسِبَتْ إلى الحنفاء صِفَاتٌ مُشتركة، أجمع عليها أهلُ الأخبار، منها أنَّ هؤلاء لم يسجدوا لصنم، ولم يأكلوا من المذبوح للأنصاب، ولم يُعاقروا الخمر، بالإضافة إلى طقوس التعبد التأمُّلي التي يُمارسُونها، بالاعتكاف في البراري والخلوات، وفي الكهوف والمغاور، حيث ينقطعون للتحنث والتعبد، كما أنهم كانوا– على العموم– من أصحاب الفضائل([1]).

وكان تحنُّث الرسول صلى الله عليه وسلم في حراء من كل سنة شهرًا، كان ذلك مما تحَنَّثُ به قريش في الجاهلية... حيث قال أبو طالب([2]):

... ... ورَاقٍ لِيَرْقَــى فــي حــرَاءٍ ونــازِلِ

لقد كان لأهل مكة وضعٌ دينيٌّ خاص بعد أن أهلك الله أصحاب الفيل، فاختلفت النظرةُ إليهم، وقد لَخَّصَ النجمُ عمرُ بنُ فهدٍ أثر تلك الحادثة بقوله: "فلَمَّا رأتْ جميع العرب ما أصاب الحبشة من النقمة أعظَمَتْ قريشًا وأهل مكة، وقالوا: هؤلاء أهلُ الله، قاتَلَ عنهم وكفاهُم مؤنة عدوهم، فجعلوا يقولون في ذلك الأشعار ويذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما دفع عن قريش من كيدهم، ويذكرون الأشرم والفيل وما ساقه إلى الحرم، وما أراد مِنْ هدم البيت واستحلال حرمته"([3]).

وكان لدَى القرشيين بقايا معتقدات أخرى، منها تقديسُ النار، الذي اتخذ مظاهر مختلفة في الجاهلية، أحصاها د. أنور أبو سويلم، في:

1– القَسَم بالنار، حيث كان باليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم وكانوا يُقسمون بها.

([1]) الأحناف، عماد صباغ ص38.

([2]) تاريخ الطبري جـ1– ص326.

([3]) إتحاف الورى للنجم عمر بن فهد جـ1– ص42.

2- التحالف على النار، حيث كان بعضهم يعقد حِلْفَهُ عندها، ويذكرون منافع النار، ويَدْعُون بالحرمان والْمَنْع من منافعها للذي ينقض الحلف ويخيس بالعهد.

3- الاستسقاء بالنار، حيث كانوا يُشعلون النيران المقدَّسة في أذناب البقر كي تأتي بالمطر فتُطفأ النيران.

4- نار البراكين، حيث حاوَلوا استرضاءها بالتذلُّل والتضرُّع والتعاويذ والسحر.

5- نار الطَّلَل، حيث يكرر الشعراء الجاهليون وقوفهم على الأطلال يندبون الرَّماد والأثافي الْمُحترقة التي غادرتها المرأة وقومها ومضى زمن طويل على خمودها.

6- نار القِرَى، يُوقدونها للضيفان وطُرَّاق الليل، والعُفاة الملهوفين الجياع، ويختارون وقتًا لإيقادها، عندما تشح الألبان، أو إذا كانت السنة شهباء من البرد، أو يختارون وقتًا من أيام السنة تكون فيه ليلة ذات ريح عاصف.

7- نار الحرب، وتُسَمَّى نار الأهبة والإنذار، حيث كانوا إذا أرادوا حربًا أو توَقَّعُوا جيشًا وأرادوا الاجتماع أوقدوها ليلاً على جبلهم لتجتمع إليهم عشائرُهُم.

8- نار الغَدْر ونار الطَّرْد، وهي نار العار، تُوقَد بمنًى على أحد الأخشبين، جبلي مكة: أبي قُبَيْسٍ وقُعَيْقِعَان، أو أبي قُبَيْسٍ والأحْمَر، فإذا استعَرَتْ صاح مُوقِدُها: هذه غدرة فلان، ليحذره الناس، وليعلموا أنَّ فلانًا قد غدر بجاره. وكان هذا الجبل يُسَمَّى الأمين، الذي يكشف عن غدر الغادرين ويفضحهم. فإنه كان يُسمَّى الأمين لأنَّ الرُّكْنَ كان مستودَعًا فيه أيام الطوفان. وفي نار الغَدر قالت صفية بنت عبد المطلب:

لنَا السَّلَفُ الْمُقَدَّمُ قد عَلِمتُمْ ولَمْ تُوقَدْ لنَا بِالغَدْرِ نَارُ

9- نار السَّليم، حيث اعتقدوا قوى سحرية في النيران قادرة على شفاء الأمراض، فيوقدونها للملدوغ والمجروح.

10- نار السلامة أو نار الإياب، حيث كان العربُ يُوقدون نارًا إذا عاد المسافر غانمًا سالِمًا([1]).

([1]) مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، ويضم بحثا قيِّمًا بعنوان: النار في الشعر الجاهلي، منشورًا- من قبل- في مجلة "دراسات"- الجامعة الأردنية- عمَّان"، وأعاد نشره في هذا الكتاب ص113- 161. وقد قمتُ بتلخيص بحثه بإيجاز شديد بقدر الإمكان، لإبراز مظاهر قداسة النار عن العرب.

وانظر بيت صفية بنت عبد المطلب في القصيدة رقم (15) من مجموع شعرها من هذا الكتاب.

ثالثًا– بنو هاشم في الإسلام:

لِبَنِي هاشمٍ في الإسلام مكانةٌ خاصة، فهم أهلُ بيت النبي صلى الله عليه وسلم، كما أنَّ الله اصطفاه منهم، واصطفاهُم من قريش، فهم مُصطفَوْن كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم. فعن وَاثلة بن الأسقع، رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَد إسْماعيل، واصْطَفَى قُرَيْشًا من كنانة، واصطَفَى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم"([1]).

وقد كان توقيرُ آلِ بيتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم واجبًا في الإسلام، لقرابتهم منه. فقد رُوي أنَّ العبَّاس بن عبد المطلب لم يَمُرّ قَطُّ بعُمَر ولا بعُثمان وهما راكبان إلاَّ تَرَجَّلا حتى يجوزهما؛ إجلالاً له أن يَمُرَّ وهما راكبان وهو يمشي([2]). كما رُوي أنه "رَكِبَ زَيْدُ ابنُ ثابت، فدَنا عبدُ الله بنُ عبَّاس ليأخُذَ بركابه، فقال: لا تفعَلْ يا بْنَ عَمِّ رسول الله. فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعَلَ بعُلَمائِنا. فقال زَيْدٌ: أَرِني يدَك. فأخْرَجَ يدَهُ، فقَبَّلَها زَيْدٌ، ثم قال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفْعَلَ بأهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا عليه السلام([3]).

وبعد ثلاثِ سنين من الدعوة إلى الله سِرًّا، أُمِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم، أنْ يُنْذِرَ عَشِيرتَهُ الأقربين، حيثُ قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[سورة الشعراء: 214]، ويُروى "أنه لَمَّا نزَلتْ هذه الآية صعد رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم الصَّفا، فنادَى الأقربَ فالأقرب، وقال: (يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عبَّاسُ عَمّ محمد، يا صفيَّةُ عَمَّة محمَّد، إنِّي لا أمْلِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا، سَلُوني من المال ما شئتم)...". ورُوِيَ "أنه جمع بني عبد المطلب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، على شاة وقعبٍ من لبن، وكان الرجُلُ منهم يأكل الْجَذَعَة– وهي العنزة في السنة الثانية– ويشربُ العُسَّ– وهو الإناء الكبير الذي يُحلَبُ فيه اللبن– فأكلوا وشَرِبُوا، ثم قال: (يا بَنِي عبد المطلب، لو

([1]) رواه مسلم. وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ج1– ص32.

([2]) عيون الأخبار لابن قتيبة مج1– ص269.

([3]) السابق نفس الصفحة.

أخبرتُكُمْ أنَّ بِسَفْح هذا الْجَبَلِ خَيْلاً أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟) قالوا: نعم، فقال: (إنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بين يَدَيْ عَذَابٍ شديد)..."([1]).

فكانتْ عَشِيرتُه من بني هاشم وبني الْمُطَّلِب يدفعون عنه أذَى قريش، ويُؤْوونَهُ- ماعدا أبا لهب- بل حُصِرُوا معه في شِعْبِ أبي طالب ثلاث سنين، بعد أن كتب القرشيون صحيفة بمقاطعتهم وعلَّقوها في جوف الكعبة. ونافَحَ عنه عَمُّه أبو طالب بكلِّ ما أوتِيَ من طاقة؛ نافح عنه بالأشعار، وتصَدَّى لقريش جميعًا، وجعل ابنيه عليًّا وجعفرًا في حمايته. وكان عَمُّه حمزةُ قد أسْلَم، وعَلِمَتْ قريشٌ أنه سيمنعُه، وبه قد عَزَّ، لكنَّ رؤساء قريش كانوا قد قتلَتْهُم كبرياؤهم، فحنقوا على الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى بني هاشم، فكانوا في محاولاتٍ دائمة للقضاء على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وعلى الدِّين الذي جاء به، فتَصَدَّى لهم بنو هاشم، بِمَنْعِهِم من تنفيذ خُطَّتهم، إلى أن خَرَجَ بنو هاشم وبنو المطلب من الشِّعب، وتُوفِّي أبو طالب، فاستمرَّت مضايقاتُ القرشيين ثلاث سنين بعدها، إلى أن أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم، بالهجرة إلى المدينة، وهنا كان على بني هاشم وبني المطلب أن يضربوا المثل والقُدْوة في الدِّفاع عن الدِّين الجديد، فكانوا مُتصَدِّرينَ للسرايا والغزوات الأولى، إلى أن استقَرَّ أمرُ الأنصار على أن يكونوا مدافعين عن نبيِّهم صلى الله عليه وسلم، وعن دينهم، ويتخذوا خطوةً أكبر مما بايعوا عليه النبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة، فيكون الأنصاريُّ كالمهاجر تمامًا في الذَّوْد عن الدين بكل ما يملك، بحيث لا يكون الدفاع عنه في المدينة فقط، وإنما يكون بمهاجمة أعداء الدِّين إنْ أمَرَ بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ترَكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أهل بيته، بصفتهم كنزًا مصونًا، حيث قال- فيما يُعرَفُ بحديث الثقَلَيْن-: "إنِّي تاركٌ فيكُم الثقَلَيْن: كتابَ اللهِ وعِتْرَتي، ولن يفترقا حتى

([1]) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ24- ص148.

يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْض". والعربُ تقول لكل شيء نفيس مصون: ثَقَل- بالتحريك، وقد فسَّرَ النبي صلى الله عليه وسلم (الثَّقَلَيْن) فجعلهما كتاب الله وعترته([1]).

وأحاديثُ الثقلين- مع أهميتها القصوى- مغمورةٌ مطمورة، مع أنها "مروية عن علماء أجلاَّء من أهل السنَّة، ومن أكبر المحدِّثين في الصحاح بأسانيد متعددة، واتُّفِقَ على روايتها، فرواها مسلم والترمذي في الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والثعلبي في تفسيره، وابن المغازلي في المناقب، وصاحب الجمع بين الصحاح الستَّة، والحميدي، والسمعاني في فضائل الصحابة، وموفق بن أحمد، والطبراني، وابن حجر في الصواعق، وغيرهم، ورُويتْ هذه الأحاديث من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقًا"([2]). فعن زيد بن أرقم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن: أوَّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسِكُوا به، وأهل بيتي، أذَكِّرُكم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي". وعن أبي سعيد الْخُدْريّ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إنِّي تاركٌ فيكم الثقَلين"، وفي رواية: "خليفتين أحدهما أكبر من الآخَر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترِقَا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْض"، وفي رواية: "إنَّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظُرُوا كيف تخلفوني فيهما"، وفي رواية: "إنِّي تارِكٌ فيكم أمْرَيْن لن تَضِلُّوا إن اتَّبَعتُموهما، وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي"([3]).

ويُروَى أنَّ كعب الأحبار "أخذ بيد العَبَّاس بن عبد المطلب، وقال: (اخْتَبِئْهَا لي عندَك للشفاعة)، فقال العباسُ: (وهل لي شَفَاعة؟)، قال: (نعم، ليس أحدٌ من أفاضل أهل النبي صلى الله عليه وسلم يُسْلِمُ إلاَّ كانت له شفاعة)..."([4]).

([1]) التكملة والذيل والصلة للصغاني- ثقل- جـ5- ص286 و287.

([2]) كشف الغطاء عن أهل البلاء ص33.

([3]) السابق ص33 و34. وقد حاولتُ الاختصار بقدر الإمكان، فيما استفاض فيه المؤلف بخصوص حديث الثقلين.

([4]) أنساب الأشراف (جمل من) للبلاذري جـ4- ص25.

وقد كان عُمَرُ بنُ الخطاب يُحِبُّ آلَ البيت، وعَيَّن عليَّ بن أبي طالب وزير صدقٍ له. وبلغ الودُّ بينهما أن الإمام عليًّا زوَّجَ ابنته أم كلثوم للفاروق عُمر، وما كان أحدٌ أشدَّ فرَحًا من عُمر في نيل هذا الشرف، ومن شدة فرحه كان يقول للناس: ألا تُهنوني؟ ألا تهنوني؟، فكان محبًّا لعلي بن أبي طالب ولولديه الحسن والحسين، مما جعله يفرضُ لكل منهما خمسة آلاف درهم، ولولده ألفًا واحدًا، فلمَّا رَاجَعَهُ ابنه في ذلك، قال: "ويحك يا عبد الله! هل لك جَدٌّ كجَدِّهما، أو جَدَّةٌ كجَدَّتهما، أو أمٌّ كأمِّهما، أو أبٌ كأبيهما؟!"([1]).

وقد روَى البخاري في صحيحه توسُّل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بالعباس عَمِّ النبي صلى الله عليه وسلم، والاستسقاء به "عن أنس بن مالك أنَّ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحَطُوا استَسْقَى بالعَبَّاس بن عبد المطلب فقال: (اللهمَّ إنا كُنَّا نتوَسَّلُ إليك بِنَبِيِّنَا فتَسْقِينَا وإنَّا نتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنا فاسْقِنَا)، قال: فيُسْقَوْن"([2]).

وفي استسقاء عُمَر بالعباس، يقول حسانُ بنُ ثابت:

سَـأَلَ الإمـامُ وقـدْ تَتـابَعَ جَـدْبُنَا فسَـقَى الغَـمَامُ بِغُـرَّةِ العَبَّـاسِ
عَـمُّ النَّبـيِّ وصِـنْوُ والـدِهِ الـذي وَرِثَ النـبيَّ بِـذَاكَ دُونَ النَّـاسِ
أحْيَـا الإلـهُ بِـهِ الـبِلادَ فأصْـبحَتْ مُخْضَـرَّةَ الأجْنَـابِ بَعْـدَ الْيَـاسِ([3])

وفي هذا الاستسقاء ثلاثة أبيات أخرى للعَبَّاس بن عُتبة بن أبي لهب، مذكورة في قسم الجمع، من هذا الكتاب.

([1]) كشف الغطاء ص120 و121.

([2]) صحيح البخاري- كتاب الاستسقاء- باب 3: سؤال الناس الإمام إذا قحطوا، الحديث رقم (1010) ص116.

([3]) ديوان حسان بن ثابت (ط. وليد عرفات) القطعة رقم (324)- جـ1- ص491. وانظر طبعة د. سيد حنفي ص 389 و390، مع ملاحظة التحريف عنده في البيت الأول (سال- دون همز)، (بِغَمْرَة العَبَّاس)، وهو ما لا تُسعفه فيه المصادر. بالرغم من أن المحققيْن كليهما رجعا إلى كتاب واحد فقط، هو الاستيعاب لابن عبد البر، وليس فيه (بِغَمْرة)، فإذا أضفنا إليهما أن الأبيات الثلاثة في الوافي بالوفيات للصفدي جـ16- ص361، يكون حُكمنا بالتحريف صحيحًا.

لقد جعَل الإسلامُ محبة بني هاشم واجبةً على كل مسلم، كما حذَّر من بُغضهم، وقد ذكر ابن حجر الهيتمي حديثًا– قال عنه إنه حسن– ونصه: "بُغْضُ بني هاشم والأنصار كُفْرٌ، وبُغْضُ العرب نفاق"([1]).

ولهذا فإنَّ مِنْ أهَمِّ الأمور الدينية وآكَدِ العقائد الإسلامية "اعتقاد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ مِنْ كُلِّ مَلَكٍ ورسول، وأصوله وفروعه أشرف فروع وأصول، كيف لا وقد اتصلت بنسبه أنسابُهم، وارتبطت بحسبه أحسابُهم، فَهُم منه وإليه، وأقربُ الناس لديه. ولا ريب في أنَّ محبته صلى الله عليه وسلم فرضٌ على كل مُوحِّد، مجتهدٍ أو مُقلِّد، وبحسب زيادتها ونقصانها تكون زيادة الإيمان ونقصانه. ومن ادَّعَى الإيمان بدونها فقد عظُم نفاقه وبهتانه، ومن محبته عليه الصلاة والسلام، محبة من اتصلوا به، ورجعت أنسابُهم– كآبائه وأبنائه– إلى نسبه"([2]).

([1]) مبلغ الأرب في فخر العرب، للهيتمي، ص39.

([2]) الشرف المؤبد لآل محمد، للنبهاني، ص5.